بسم الله الرحمن الرحيم

يسر موقع ميراث الأنبياء أن يقدم لكم تسجيلًا لدرس في شرح

"القواعد الأربع"

للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى-

ألقاه فضيلة الشيخ الدكتور عبد الله بن عبد الرحيم البخاري

-حفظه الله تعالى-

في جامع الرضوان بالمدينة النبوية

نسأل الله - سبحانه وتعالى- أن ينفع به الجميع.

الدرس الأول

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد: اللهم اغفر لنا ولشيخنا ولوالدينا وللسامعين.

المتن:

بِسْمِ اللَّـــهِ الرَّحْمَـــٰنِ الرَّحِيمِ

أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذنَبَ اسْتَغْفَرَ. فَإِنَّ هَؤُلاءِ الثَّلاثُ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ.

قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- في رسالته القواعد الأربع:

الشرح:

بسم الله الرحمن الرحيم، إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله

من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهدُ أن نبينا محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّـهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّـهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّـهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّـهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾

أما بعد:

فإن خير الحديث كتابُ الله، وخير الهدي هدي محمد -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتُها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالةٍ في النار، وبعد:

فنشرع -بارك الله فيكم- في شرح هذه الرسالة العظيمة لشيخ الإسلام المجدد محمد بن عبد الوهاب -رحمة الله تعالى عليه- الشهيرة بـ: "الأربع القواعد"، أو "القواعد الأربعة".

وقبل أن نبدأ في شرح كلام الشيخ -رحمه الله- أتكلم باختصار عن هذه الرسالة المختصرة من وجهين.

الكلام عن هذه الرسالة المختصرة من وجهين:

الوجه الأول:

أن هذه الرسالة على وجازتها واختصارها فإنها من أنفع الرسائل المختصرة في بيان صحيح الاعتقاد المتعلق بألوهية الله -جل في علاه-؛ ولهذا درج العلماء -

رحمة الله تعالى عليهم- على تدريسها والتعليق عليها، وحث الطلبة على حفظها ومدارستها.

إذًا هي رسالةٌ لا يستغني عنها المنتهي، ولا غنى للمبتدي عنها، فلا يستغني عنها المنتهي، ويحتاج إليها المبتدي؛ بل لا غنى له عنها.

والسبب في هذا راجع إلى أمرين اثنين، السبب في عدم استغناء المنتهي والمبتدي لها راجع إلى سببين اثنين:

* أولهما: أن مضمون هذه الرسالة متعلق كما تقدم بصحيح المعتقد، وذلك في بيان التوحيد الخالص لله -جل وعلا- وكذلك بيان ضده وهو الشرك، وكلا البيانين جاء بعبارات مختصرة قوية في المبنى كثيرة في المعنى، جاء بها الشيخ -رحمه الله-، وكما قيل عند العرب: الشيء يعرف حسنه بمعرفة ضده وبالأضداد تتميز الأشياء. وضح.

إذًا هذا السبب الذي من أجله عُني العلماء بهذه الرسالة.

* السبب الثاني: أن هذه الرسالة المختصرة من عقلها وفهمها فهمًا جيدًا فإنه يفهم دين المشركين، وكذا يفهم دين المسلمين، أقول من عقلها وفهمها فهما صحيحًا، فهم دين المشركين وفهم أيضًا دين المسلمين، أي الدين الإسلامي الحق الصحيح، ومع الأسف فإن كثيرًا من الخلق لا يفهمون هذه القواعد الأربع، فصرفوا ما يجب صرفه لله إلى غيره -جل في علاه- من شجر أو حجر أو نحو ذلك وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا -ولا حول ولا قوةً إلا بالله-.

كل هذا بسبب الجهل بحقيقة التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، وكذلك الجهل بحقيقة الشرك بالله -جل في علاه-.

هذا ما يتعلق بالسببين عن الوجه الأول.

أما الوجه الثاني:

فهو يتعلق بعنوان الرسالة إذ قال المصنف -رحمه الله- سميت بالأربع القواعد أو القواعد الأربعة، ونعرج على معنى القاعدة:

فالقاعدة لغةً: هي الأساس، وقواعد البيت أساسه، ومنه قوله -جل وعلا-: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾، ومنه قوله -جل في علاه-: ﴿ فَأَتَى اللَّـهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾.

وقواعد الهودج هي خشبات أربع معترضات في أسفله، ويحمل الهودج عليها، والجمع: قواعد.

وفي الاصطلاح: هي الأمر الكلي الذي ينطبق عليه جزئيات كثيرة يُفهم أحكامها منه.

هذا معنى القاعدة عمومًا كما ذكر هذا جمعٌ من أهل العلم، منهم ابن السبكي في "الأشباه والنظائر" وغيره.

ولن أعرج على الفرق بين القاعدة والضابط، أو القاعدة والأصل؛ فليس هذا محل البسط، لكن أنبه إلى أن بعض هل العلم يستخدم الأصل بمعنى القاعدة، بعضهم قد يستخدم الأصل بمعنى القاعدة، بالمعنى الذي ذكرناه قبل قليل.

وضح.

ومن هؤلاء الإمام ابن القيم -رحمة الله تعالى عليه- في رسالته أو في كتابه "إعلام الموقعين".

هذان الوجهان المتعلقان بالرسالة ابتداءً.

ثم بدء الشيخ بالبسملة، وقرأ القارئ-وفقه الله- أولى المقاطع، والكلام عليه من وجهين:

الوجه الأول:

أن المؤلف - رحمه الله- بدأ الرسالة بالبسملة، وهذا الابتداء منه يتفق مع كتاب الله، ومع سنة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم- العملية، ويتفق أيضًا مع صنيع الأئمة من السلف، فهو سائر على طريقة الكتاب والسنة، وطريقة الأئمة - رحمة الله تعالى عليهم-.

الأمر الثاني:

بدأ- رحمه الله- بقوله: " أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ".

بدأ – رحمه الله- بالدعاء لك يا طالب العلم، ويا طالب الحق، ويا من تبحث عن الحق لتعبد الله على بصيرة فبدأ بالدعاء لك، وهذا من نصحه لك وللأمة، من نصحه لك؛ أي: يا طالب العلم وكذا للأمة، من نُصح الإمام محمد – رحمه الله- لك وللأمة أن بدأ بهذا الدعاء.

وقد جمع – رحمه الله- في هذا الدعاء بين أمرين اثنين: بين الدعاء والإفادة.

دعا لك وجاءك بما يفيدك بما لو حققته فإن الله يتولاك في الدنيا ويتولاك في الآخرة.وضح.

أقول: جاءك بأمرين اثنين: بالدعاء وبالإفادة؛ فالدعاء سأل الله -عز وجل- أن يتولاك في الدارين، ومن يتوله الله -عز وجل- فاز ولن يضره مكروه.

قال الله – جل في علاه-: ﴿اللَّـهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فإن تولاك الله فلا خوف عليك.

ومن دعاء الشيخ أيضا – رحمه الله- هنا أن قال: "وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ".

هذا الدعاء مقتبس من قول الله – جل وعلا- حكايةً عن عيسى -عليه السلام-: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾، فهو مقتبس منه.

وقد جاء في بيان معنى ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ جاء عن الإمام الثوري ومجاهد -رحمة الله تعالى عليهما- أن المراد به هنا ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ أن المراد به: معلمًا للخير حيثما كنت.

تريد أن تكون مباركًا حيثما كنت، فعلم الناس الخير حيثما كنت،- إذا كنت من أهله- أعني: من أهل تعليم الناس.

وجاء عن مجاهد في رواية - كل ذلك عند الإمام ابن جرير -رحمه الله- في التفسير - أنه أي المراد ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ أي: نفَّاعًا. والمعنى متقارب؛ فمن علم الناس الخير حيثُ ما كان فقد نفعهم، والمؤمن كالغيث أينما حل نفع، الغيث والسحاب المزن أينما حلت نفعت وأمطرت فاهتزت الأرضُ ﴿وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾.

هكذا يجب أن يكون المؤمن السني نفَّاعًا، معلمًا للناس الخير، حريصًا على هداية الخلق وبيان الحق لهم.

ومن دعائِهِ أيضًا - رحمه الله- أن قال لك: "وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذنبَ اسْتَغْفَرَ فإن هؤلاء الثلاث عنوان السعادة".

هذا من دعائه أيضًا لك، فمن قام بهذه الثلاث المذكورات هنا: بأنه إذا أعطي

شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، إذا قام العبدُ بهذه الثلاث فيما لو قامت به فقام بحقها فإنه ممَّن قام بشكر الله - جلَّ وعلا- ، وكذلك قام بما يجبُ عليه لله - جل في علاه - سبحانه وتعالى-.

قال الله -عز وجل-: ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ ، ويقول -جل وعز-: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّـهِ ﴾ فإنها كلها منه - جل وعز-.

وشكر الله -عز وجل- يكونُ بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وإنما يكونُ أو يُوقع العبد الشكر بالقلب واللسان والجوارح.

وإذا أذنب العبد استغفر ربه وخر راكعًا وأناب ﴿ نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ رجاعٌ إلى الله مخبتٌ متذللٌ له -جل وعز-.

وإذا ما ابتلاه بأمر فإن الواجب عليه الصبر ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ كما قال الله -جل وعز-، هكذا شأن المؤمن، المؤمن بالله حقًا هذا هو

شأنهُ، ولهذا جاء في الصحيح عند مسلم قوله – صلى الله عليه وسلم–: ((عَجَبًا لأَمْرِ المؤمنِ إِنَّ أَمْرَه كُلَّهُ لهُ خَيرٌ ليسَ ذلكَ لأَحَدٍ إلا للمُؤْمنِ إِنْ أَصَابتهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فكانتْ خَيرًا لهُ وإِنْ أَصَابتهُ ضَرَّاءُ صَبرَ فكانتْ خَيرًا لهُ))[1] .

وهذا الكلام الذي ذكره الإمام محمد هنا إذ قال: "فإن هذه الثلاث عنوان السعادة" اقتبسه من كلامٍ للإمام ابن القيم –رحمه الله– في "الوابل" فيقول – رحمه الله– في بدء الكتاب قال– رحمه الله– بعد البسملة والحوقلة، قال –رحمه الله–: " ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم الله – سبحانه وتعالى–المسئول المرجو الإجابة أن يتولاكم في الدنيا والآخرة " قارن هذا بكلام الإمام محمد "وأن يسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، وأن يجعلكم ممن إذا أنعم عليه شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، فإن هذه الأمور الثلاثة عنوان سعادة العبد" يعني في الدنيا والآخرة، يعني في الدارين "وعلامةُ فلاحه في دنياه وأخراه ولا ينفكُ عبدٌ عنها أبدًا، ما لك حالٌ رابعة، العبدُ بين هذه الثلاث ليس له حالٌ رابعة

[1] - صحيح مسلم كِتَاب الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ بَاب " الْمُؤْمِنُ أَمْرُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ "

لا ينفك عنها عبد أبدًا، فإن العبد دائم التقلب بين هذه الأطباق الثلاث:

الأول: نعم من الله فقيدها الشكر، وهو مبني على ثلاثة أركان:

- الاعتراف بها باطنًا.
- التحدث بها ظاهرًا.
- تصريفها في مرضاة وليهـا ومسديها ومعطيها.

فإذا فعل ذلك فقد شكرها مع تقصيره في شكرها.

الثاني: محنٌ من الله – جل وعلا– يـبتليه بها، ففرضه فيها الصبر والتسلي.

والصبر: حبْس النفس عن التسخط بالمقدور، وحبْس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن المعصية كاللطم وشق الثياب ونتف الشعر ونحوه.

فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة، فإذا قام به العبد كما ينبغي انقلبت المحنة في حقه منحةً، واستحالت البلية عطيةً، وصار المكروه محبوبًا، فإن الله –

سبحانه وتعالى- لم يبـتله ليهلكه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته، فإن لله تعالى على العبد عبودية في الضراء كما له عبودية في السراء، وله عبودية عليه فيما يكرهه، كما له عبودية فيما يحب، وأكثر الخلق يُعطون العبودية فيما يحبون، والشأن في إعطاء العبودية في المكاره ففيه تفاوت مراتب العباد وبحسبه كانت منازلهم عند الله – جل وعلا-" إلى آخر كلامه -رحمة الله عليه-.

فإذًا كلام الإمام محمد مقتبس من كلام الإمام ابن القيم -رحمه الله-.

وهنا أيضًا كلمة للإمام ابن القيم في "الفوائد" يقول – رحمه الله- في شأن السعادة، لمن يبحث عن السعادة، قال – رحمه الله-: "والأصول التي انبنى عليها سعادة العبد ثلاثة، سعادة العبد تنبني على ثلاثة أصول لكل واحد منها ضد، فمن فقد ذلك الأصل حصل على ضده:

- أولاها التوحيد، وضده الشرك.
- والسنة وضدها البدعة.

- والطاعة وضدها المعصية.

ولهذه الثلاثة ضد واحد، وهو خلو القلب من الرغبة في الله، وفيما عنده، ومن الرهبة منه ومما عنده، هكذا رجع الأمر إليه".

فقل لي بربك من يقول إن دراسة كتب العقيدة تقسي القلب ما عرف الاعتقاد الصحيح وما ذاق حلاوته.

قال -رحمه الله-: "ولهذه الثلاثة ضد واحد وهو خلو القلب من الرغبة في الله، إذ إنك لو رغبت في الله لبحثت عن مراضيه، وابتعدت عن مساخطه، وتقربت إليه، وانكسرت له، وتذللت وخضعت إليه- جل وعز-، وبحثت عن أمر عظيم أمرك به وهو التوحيد، ففتشت وطبقت ذلك الأمر كما يريده - جل وعز-، قال: وفيما عنده، الرغبة خلو القلب من الرغبة في الله وفيما عند الله، ولهذا ابتعدت عن تحقيق التوحيد، وارتكاب الآثام والمعاصي، ومن الرهبة منه ومما عنده" انتهى كلامه - رحمه الله- وخير الكلام ما قلَّ ودل.

وقال أيضًا - رحمه الله- في فصل آخر في مراحل تعظيم الأمر والنهي قال - رحمه الله-: "قاعدة جليلة: النعم كلها من الله، قد فكرت في هذا الأمر، يقول: قد فكرت في هذا الأمر فإذا أصله أن تعلم أن النعم كلها من الله وحده، نِعم الطاعات" أنت تتلذذ بالطاعة فهذه من الله، منَّ الله بها عليك لتتلذذ بها، ولهذا كان من قوله -عليه الصلاة والسلام-: ((أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ)) ، ومنه قوله -عليه الصلاة والسلام- كما في الصحيح: ((وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ)) قال - رحمه الله-: "نعم الطاعات ونعم اللذات فترغب إليه أن يلهمك ذكرها وأن يوزعك شكرها" ، قال الله -جل وعلا-: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّـهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ وقال -جل وعلا-: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّـهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وقال: ﴿ وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّـهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ وكما أن تلك النعم منه ومن مجرد فضله فذكرها، النعم منه أليس كذلك؟ قال: "ومن مجرد فضله، فذكرها -أي ذكر النعمة- وشكرها لا يُنال إلا بتوفيقه" فإذا وفقك الله

للشكر فقد أنعم عليك -جل وعز- قال: "والذنوب من خِذلانه وتخليه عن عبده وتخليته بينه وبين نفسه، وإن لم ينكشف ذلك عن عبده فلا سبيل له إلى كشفه عن نفسه، فإذا هو مضطر إلى التضرع والابتهال إليه أن يدفع عنه أسبابها حتى لا تصدر منه -أي مرة أخرى- وإذا وقعت بحكم المقادير ومقتضى البشرية فهو مضطر إلى التضرع والدعاء أن يدفع عنه موجباتها وعقوباتها، فلا ينفك العبد عن ضرورته إلى هذه الثلاثة الأصول ولا فلاح له إلا بها - ما هي؟- الشكر ، وطلب العافية والتوبة النصوح، إليها رجع كلام الإمام ، فعنوان السعادة هذه.

قال: "ثم فكرت فإذا مدار ذلك على الرغبة والرهبة وليس بيد العبد، بل بيد مقلب القلوب ومصرفها كيف شاء سبحانه، فإذا وفق عبده أقبل بقلبه إليه وملأه رغبة ورهبة، وإن خذله تركه ونفسه ولم يأخذ بقلبه إليه، ولم يسأله ذلك وما شاء الله كان ولم يشأ لم يكن" انتهى كلامه -رحمه الله-.

بهذا اقتبس الإمام محمد – رحمة الله عليه– هذا المقطع من كلام الإمام ابن القيم

وغيره، نعم.

المتن:

اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ: أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلا مَعَ التَّوْحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلاةَ لا تُسَمَّى صَلاةً إِلا مَعَ الطَّهَارَةِ، فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ، كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ

قال –رحمه الله–:

الشرح:

يقول الإمام محمد – رحمه الله– بعد ذلك: " اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ: أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] .

هنا نقف ونتكلم على هذه أو على هذا المقطع من وجوه :

الوجه الأول:

قوله -رحمه الله- : "اعلم" هذا خطاب متوجه إلى كل من يصلح له هذا الخطاب، "اعلم" هو لا يُخاطب المجنون أليس كذلك؟ ولا يُخاطب من لا يعقِل، يُخاطِب من يصلُح أن يكون هذا الخِطاب له من حاضِرٍ أو سامِعٍ أو قارئٍ أو نحوِ ذلك أليس كذلك؟

فهذا اللَفظ خِطابٌ مُتوجّه إلى كلّ من يصلُح له الدُّخول في هذا الخِطاب،

وفيه أيضًا أي في هذا القول: "اعلم أرشدك الله لطاعتِه" أقول فيه التّلطُّف بك يا طالب العِلم بالدُّعاء، فقد سبق في أوّل مقطعٍ أن دعا لك بدعواتٍ عظيمة ثمّ أعاد بأن دعا الله لك أيضًا قال: "اعلم أرشدك الله لطاعته" فدعا الله لك مُتلطِّفًا بأن يُرشِدك الله لطاعتِه بالرّشدِ، والرُّشد ضدُّ الغيّ.

قال الإمام ابن القيّم في "إغاثة اللّهفان":

"الرُّشدُ هو العِلم بما ينفعُ والعملُ به" ثمّ قال: "والرُّشد والهُدى إذا أُفرِد كلٌّ منهما تضمّن الآخر" الرُّشد والهُدى إذا أُفرد يعني إذا ذُكر الهُدى في موطن والرُّشد في موطِن تضمَّن الرُّشد معنى الهُدى، وذاك إذا أُفرِد تضمَّن الهُدى معنى الرُّشد، وإذا قُرِن أحدُهما بالآخر يعني إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقَا اجتمعا وإذا قُرِن أحدُهما بالآخر، قال: "فالهُدى هو العِلمُ بالحقّ، والرُّشد هو العملُ به، وضِدُّهما هو الغيُّ واتِّباعُ الهوى" انتهى كلامُه -رحمه الله-

فالإمامُ محمّد بنُ عبد الوهّاب هُنا يدعُو الله لك بالرُّشد لطاعته، وهنا يعني أُفرِدت فتضمَّنت معنى الهُدى، فهي هُنا تتضمّنُ معنى الهُدى إذًا العلمُ بما ينفعُ والعملُ به،

فالإمامُ مُحمّد يدعُو الله أن يُرشِدك لطاعتِهِ ويُلاطِفك بهذا الدُّعاء؛ لأنّ العِلم مبنيٌّ على التّلطُّف؛ إذ هو رحِمٌ ورحمةٌ، قال الله - جل وعلا-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، فهُو رحِمٌ بين أهله ورحمةٌ على الخلق أجمعين.

ثمّ لتعلَم -أيُّها المُحِب- أنّ هذه الكلِمة كلمة "اعلم" إنّما يُؤتى بها في مقام الاهتِمام، يُؤتى بكلِمة "اعلم" في مقامِ الاهتِمام تنبيهًا وحثًّا للسّامِع على التّدبُّر والإصغاء لِما سيُذكر له.

فيها اهتِمامٌ وتنبيهٌ لك وحثٌّ لك على أن تنتَبه بأذنِك وحواسِّك وتُقبِل بكُلِّيتِك لتعلم ماذا سيُذكرُ لك بعد كلمة: "اعلم" .

فهو كأنّه يشُدُّ انتِباهَك لِتهتّم بما سيَقُول لك، وهذا من طرائِق التّربيّة والتّعليم، إذًا عرفنا معنى هذه اللّفظة.

قولُه: " أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ " ماهي طاعةُ الله؟ .

طاعةُ الله: مُوافقَة المأمورِ به فِعلًا للمأمور وتركًا للمحظور.

هذا المُرادُ بالطّاعة.

الوجهُ الثّاني:

قوله: " أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ " .

الحَنِيفِيّة اسمُ إنّ، وملّةُ إبراهيم إمّا بدلٌ وإمّا عطفُ بيان من الحنيفِيّة.

والحنِيفُ مُشَتقٌ من الحَنَف، وهو الميلُ عنِ الضّلال إلى الهُدى، ويُقابِل الحَنف الجَنف بالجِّيم.

فإنّ المعنى أي معناهُ هو الميلُ عنِ الاستِقامةِ والهُدى إلى الضّلالة يعني انحراف - نعُوذُ بالله-.

فالحنِيفُ هو المائِلُ عن الشِركِ الذي هو أُسُّ الضّلالة إلى التَّوحيد قصدًا.

مَال عنِ الشِّركِ إلى التّوحيدِ قاصِدًا التّوحيد، قال الله-جلّ وعلا-: ﴿قَانِتًا لِّلَّـهِ حَنِيفًا﴾ قانِتًا لله قاصِدًا أن يكون قانتًا حنِيفًا لله.

وقال- جل وعلا-: ﴿حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾.

وتُجمعُ هذه اللّفظة أو الكلمة على: حُنفاء.

قال الله-جل وعلا-: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾، ﴿حُنَفَاءَ لِلَّـهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ .

والعربُ - أيُّها الإخوة - تُسمِّي قديمًا، العرب كانت تُسمِّي كلّ من حجَّ البيت أو اختتَن كانُوا يُسمُّونه: حنِيفًا أو حنِيفِيًّا، يريدُون أنّه على ملَّة إبراهِيم.

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ .

واختتن إبراهِيم بالقَدُوم أليس كذلك؟ كما في الصّحيحَين.

وهكذا فكانوا يقولون هذا الاسم على من حجَّ أو اختتَن تنبيهًا على أنّه على ملّة إبراهيم -عليه الصّلاة والسّلام-.

فمِلَّة إبراهيم إذًا ماهي؟ هي الحنِيفِيَّة، ماهي الحنِيفِيَّة؟

الميلُ عن الشِّركِ إلى التّوحيدِ قصدًا.

وهي الّتي عبّر عنها الإمامُ مُحمّد هنا: "أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ "

الوجهُ الثّالث:

المُتأمِّل في القرآن يجِد أمرين مُهمّين يتعلّقان بالموضُوع هنا وهو:

- يجد ويلحظ ويقرأ أن الله -جل وعلا- أمر نبيه محمدًا -صلى الله عليه وسلم- باتباع ملة إبراهيم، قال الله -جل وعلا-: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فهذا أمرٌ من الله لمحمد -صلى الله عليه وسلم- بأن يتبع ملة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-.

- كذلك الأمر الثاني أن الله -عز وجل- أمرنا بأن نتبع ملة إبراهيم فتجد، أمر الله لنبيه وأمر الله لأمة نبيه، فقال -عز وجل-: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم ﴾.

الوجه الرابع:

أن هذه الحنيفية هي التي خلق الله الخلق لأجلها أي لتحقيقها، وهو أن يعبد العبد ربه مخلصًا له الدين.

لأن الشيخ قال: أن تعبد الله، أليس كذلك؟

العبادة لها مفهومٌ عام ، ولها مفهومٌ خاص،

فالعام: قال عنه شيخ الإسلام-رحمه الله-: "طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة رسله أو على ألسنة الرسل" هذا المعنى المفهوم العام للعبادة.

وأما المفهوم الخاص: فقد قال عنه أيضًا شيخ الإسلام -رحمه الله-: "بأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة" .

وهي أيضًا - خلافًا لمن تحذلق فنفى وسفسط، هي: غاية الذل مع غاية الحب .

قال الإمام ابن القيم في نونيته:

وعبادة الرحمن غاية حبه *** مع ذل عابده هما قطبان

وعليهما فلكُ العبادة دائرٌ *** ما دار حتى قامت القطبان

ومداره بالأمر أمر رسوله *** لا بالهوى والنفس والشيطان

فهي غاية الحب مع غاية الذل لله-جل وعز-.

هذه العبادة أيها الإخوة مدارها على خمس عشرة قاعدة.

يقول الإمام ابن القيم: "مدار هذه العبادة على خمس عشرة قاعدة، من كمَّلها كمل مراتب العبودية، قال وبيان ذلك أن العبادة منقسمة على: القلب واللسان والجوارح، والأحكام للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباحٌ، وهن لكل واحد من القلب، واللسان، والجوارح.

أي: الخمس.

أي: الأحكام خمس وخمس وخمس صارت كم؟ خمس عشرة- قاعدة مدار العبادة من كملها كمل العبودية" أنت لا تبحث في أدنى درجات العبودية ابحث عن أكملها انتهى كلامه -رحمه الله- من "المدارج".

أقول وظائف الشرع من الصلاة والزكاة والصدقة والحج والصوم ونحوها من هذه الأمور تسمى هذه الوظائف المكلف بها العباد تسمى عبادات، أليست كذلك؟

لماذا سميت بالعبادات؟ سميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات لأنهم يلتزمونها ويفعلونها، على أي وجه هم يفعلون؟

أنت عندما تصلي، وعندما تتصدق، وعندما تحج، وعندما تصوم إلى غير ذلك أنت تلتزم هذا الفعل وتقوم به خاضعًا لله أليس كذلك؟ ذليلًا منكسرًا راغبًا فيما عند الله راهبًا منه -جل وعلا- أليس كذلك؟

قول الشيخ -رحمه الله-: " مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ" أي أن المرء يقصد بفعله للعبادات وجه الله، لا يريد بذلك حظًا ولا رياء ولا سمعةً.

لا ليقال متنسك، ولا يقال كذا، ولا يقال ،ولا يقال...

فلا تعبد الله إلا مخلصًا له ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

وهذا فيه بيان مهم قول الشيخ: "مخلصا له الدين" فيه بيان مهم وهو أن العبادة لا تقبل إلا بشرطين:

الأول: الإخلاص،

والثاني: المتابعة للنبي -عليه الصلاة والسلام-.

فإذا اختل الإخلاص صارت العبادة شركًا أليس كذلك؟.

وإذا اختلت المتابعة صارت العبادة بدعةً.

يقول الإمام ابن القيم –رحمه الله- في "الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي": "كما أنه إله واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده لا شريك له" هو إله واحدٌ سبحانه كذلك العبادة لا يجوز أن تكون إلا له، فكذلك ينبغي أي يجب أن تكون العبادة له وحده لا شريك له "فكما تفرد بالإلهية يجب أن يُفرد بالعبودية سبحانه فالعمل الصالح والخالص من الرياء المقيد بالسنة" انتهى كلامه –رحمه الله-.

وضح.

الوجه الأخير الخامس:

لتعلم -أيها العبد المحب-: أن الله - عز وجل- خلق الثقلين لتحقيق هذه العبادة العظيمة ألا وهي الحنيفية، ملة إبراهيم، وأُمر الثقلين بالقيام بها، قال الله - عز وجل-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

إذًا من هذا تعلم وتدرك الحكمة الشرعية الدينية في خلق الله لهذا الخلق، لو سألتك، ما هي الحكمة الشرعية الدينية في خلق الله للثقلين؟ بماذا تجيب؟

تحقيق العبودية لله وإفراده -جل وعز- بماذا؟ ما الدليل؟

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ .

قال الإمام ابن كثير في تفسيره: "معنى الآية أن الله خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم وهو خالقهم ورازقهم -سبحانه وتعالى-"

المتن:

قال – رحمه الله–:

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلا مَعَ التَّوْحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلاةَ لا تُسَمَّى صَلاةً إِلا مَعَ الطَّهَارَةِ، فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ، كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ، فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةَ أَفْسَدَهَا، وَأَحْبَطَ الْعَمَلَ، وَصَارَ صَاحِبُهُ، مِنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ. عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ، وَهِيَ الشِّرْكُ بِاللهِ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[النساء: ١١٦] وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ.

الشرح:

هنا يقول الشيخ –رحمه الله–: "فإذا عرفت أن الله خلقك لعبادته، فاعلم"

الكلام على هذا المقطع من وجوه :

الوجه الأول:

في قوله: "خلقك الله لعبادته" سبق بيان معنى العبادة، وأن لها مفهومًا عامًا ، ولها مفهوم خاص.

واضح ؟

الوجه الثاني:

ذكر الشيخ هنا مثالًا حسيًا من باب التقريب للمثال المعنوي فقال: "فاعلم أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة" وضح ؟

فهو ذكر المثال هنا من باب التقريب وهو أن الشرك مبطل للعبادة، كما أن الحدث مبطل للطهارة، فمن فعل شيئا من أنواع الشرك بطل إسلامه ودينه كما أنَّ من أتى بناقضٍ من نواقض الطهارة من ريحٍ ونحوها بطلت الطهارة.

والسبب في هذا أنَّ الشرك أعظم ذنب عُصيَّ الله -جل وعلا- به، قال الله -عز وجل-: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّـهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّـهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ

مِنْ أَنصَارٍ﴾ ، قال -جل وعلا-: ﴿إِنَّ اللَّـهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ .

وفي الصحيحين أنَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ))[٢] .

وهذا فيه ردٌ على القائلين بأُخوة الأديان، ووحدة الأديان وغير ذلك من الترهات - نعوذ بالله- فلا يمكن أن تدخل نفس الجنَّة إلا أن تكون مسلمة لله - جل وعز-: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾.

وفي الصحيح عند مسلم أنَّ عائشة -رضي الله تعالى عنها- سألت النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالت: ((يَا رَسُولَ اللهِّ، إِنَّ ابْنَ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِمُ ، فَهَلْ ذَلِكَ نَافِعُهُ ؟))[٣] ومات على الجاهلية:أي مات على الشرك ((فَهَلْ ذَلِكَ نَافِعُهُ ؟)) فقال -عليه الصلاة والسلام- لا ((يَنْفَعُهُ ، أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا:

---

[٢] - صحيح البخاري كِتَاب الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ
[٣] - صحيح مسلم كِتَاب الإِيمَانِ

رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)) أي: لم يوحد الله ولم يؤمن بالله فلو قال ذلك لكان دليلًا على إيمانه وعلى إسلامه لله – جل وعلا –.

الوجه الثالث:

أنَّ الله –عز وجل– قد بين في كتابه العظيم خطر الشرك وحال أصحابه أي المشركين في آياتٍ كثيرة تنبيهًا وتحذيرًا من الوقوع في الشركِ، لئلا يكون واقعه أو مقترفه من أهله – والعياذ بالله–، فيحذرك –جل وعلا– أو يحذر المؤمنين من الوقوع فيها أو فيه حتى لا يكون مصيرهم مصير المشركين قال الله –جل وعلا–: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

وقال الله –عز وجل–: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ وقال الله – عز وجل–: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ

كُفَّارٌ أُولَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّـهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَايُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

وقال -سبحانه وتعالى-: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّـهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّـهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ وقال -عز وجل- عن لقمان: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّـهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وقال -عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾بَلِ اللَّـهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

وفي سورة الأنعام ذكر الله -عز وجل- ثمانية عشر من الأنبياء والرسل على نسق، في سورة الأنعام ذكر الله -عز وجل- ثمانية عشر من أنبيائه ورسله في نسق، ثم قال بعد أن ذكر عنهم سبحانه قال في ختمها: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللهِّ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحبِطَ عَنْهُم مَّاكَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فإذا كان هذا

الوعيد متوجه أو منصب عليهم فما بال من دونهم؟! - نسأل الله السلامة والعافية-.

قال الله - جل وعلا-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذَا﴾، ويقول - جل وعز-: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ في آيات كثيرة.

وقال النبي الكريم -صلوات الله وسلامه عليه- كما في الصحيح عند مسلم قال الله تعالى: ((أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ))[٤] ، وفي الصحيحين أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: ((أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا خَلَقَكَ))[٥]

الوجه الرابع:

[٤] - صحيح مسلم، كِتَاب الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ رقم الحديث: ٥٣٠٥

[٥] - صحيح مسلم » كِتَاب الإِيمَانِ » بَاب كَوْنِ الشِّرْكِ أَقْبَحُ الذُّنُوبِ وَبَيَانِ رقم الحديث: ١٢٧

وجهك الشيخ - أيها الطالب- إلى أنه متى عرفت أن أهم ما عليك معرفته هو التوحيد وجب عليك- والحالة هذه- أن تعرف ضد ذلك وهو: الشرك بالله - جل وعلا-.

إذ كما أن أعظم ما أمر الله به التوحيد فإن أعظم ما نهى عنه ماذا؟ الشرك.

قال: "عرفت أن أهم ما عليك معرفة ذلك، لعل الله أن يخلصك من هذه الشبكة" وهي الشرك بالله الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ إِنَّ اللهَّ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾.

قال: "وذلك" تريد أن تعرف؟

قال: "وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ" فما سيذكره الشيخ هو مستقى من ماذا؟

من كتاب الله -جل وعلا-، فليس بدعًا من القول.

إذًا هذا المراد أن تعرف الحق بتفصيله، وأن تعرف الباطل بتفصيله؛ لتجتنبه.

عرفت الشر لا للشر ولـــتكن لأتقيه

من لا يعرف الخير من الشر يقع فيه

المتن:

قال -رحمه الله-:

الْقَاعِدَةُ الأُولَى: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ، الْمُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُدْخِلَهُمْ فِي الإِسْلامِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]

الشرح:

نعم هذه أولى القواعد، بعد هذه المقدمة وهذا التمهيد الذي هيأك له الإمام محمد، مقدمة نفيسة عظيمة فيها دقيق المسائل، وعظيمة الفوائد، بدأ -رحمه الله- بالقاعدة الأولى، والقواعد كما قلنا إنها الأساس، القاعدة معناها الأساس،

قال: "الْقَاعِدَةُ الأُولَى:أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ، الْمُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُدْخِلَهُمْ فِي الإِسْلامِ؛ وَالدَّلِيلُ الآية"

الكلام عن هذه القاعدة من وجوه:

الوجه الأول:

قال "أن تعلم " إذا كنت أهلًا للعلم فاعلم أمَّا من لم يكن أهلًا لهذا الخطاب فإنَّه لن يعلم، إذًا هذا تنبيهٌ على أنَّه إن كنت من أهل الخطاب فتأمل ما سأذكره لك وأعرفه واستفد منه، "أن تعلم أن الكفار".

يريد أن يعلمك بالدليل، أما قال – رحمه الله -: أنَّ هذه القواعد الأربع ذكرها الله في كتابه جاء بالقاعدة مع ماذا؟ مع دليلها؛ ليربيك ياطالب العلم على معرفة الحق بدليله، أن تعرف الحق بدليله.

فهو يريد أن يُعلمك الحق بالدليل أنَّ هؤلاء الكفار الذين قاتلهم النبي – صلى الله عليه وآله وسلم– لَمَّا بُعث إلى الناس، أولئك كانوا مقرِّين بتوحيد الربوبية وهو قوله: " مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ، الْمُدَبِّرُ" فإذًا هم مقرون ومؤمنون بتوحيد الربوبية إلا إنَّهم لم يخلصوا العبادة لله –جل وعلا– فهذا الإقرار لم ينفعهم إذ لم يدخلهم الإسلام ولم يخرجهم من الكفر ولهذا قاتلهم النبي – عليه الصلاة والسلام– لأنَّهم ما آمنوا بالله – جل وعلا – حق الإيمان.

قبل أن ننتقل للأمر الثاني، تتمة: هم مقرُّون بتوحيد الربوبية غير مخلصين لله في العبادة، تأمل ما تقدم أنَّ الشرك يفسد العبادة كما أنَّ الحدث يفسد الطهارة، فعندهم إقرار بتوحيد الربوبية لكن عندهم شركٌ في توحيد الإلهية فأفسد شركهم في توحيد الألوهية عبادتهم كلها.

الأمر الثاني:

أنَّ الإقرار بربوبية الله -جل وعلا- مع صرف شيء من العبادة لغيره لا يسمى توحيدًا، أو لا يعتبرُ توحيدًا منجيًا، لا يسمى توحيدًا منجيًا، أي: لا ينجيك بأن يدخلك الجنة وينقذك من النار؛ فهذا ليس توحيدًا منجيًا. وبيانه أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم ينفعهم فلم يخرجهم من الكفر ولم يدخلهم الإسلام.

ومع الأسف فإنَّ كثيرًا من أهل زماننا – ولا حول ولا قوة إلا بالله- وهو ما كان قد عايشه الإمام محمد -رحمه الله- في عصره ويوجد في بعض الأمصار في هذا الزمان من حاله كتلك الحال أنَّ كثيرًا من أهل زماننا يظنُّون أنَّ التوحيد هو اعتقاد مشاركة غير الله مع الله في الرزق والخلق والتدبير دون النظر في مسألة صرف العبادات أو العبادة لغيره فيظنون أن صرفها لغيره لا يعتبر شركًا، وضح؟ مع الأسف قال الله - جل وعلا - ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّـهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾

يقول الإمام ابن القيم فائدة نفيسة في الفوائد، هنا يتكلم -رحمه الله- قال: "فائدة جليلة" هو يقول عنها جليلة وأنت تقول عنها غير جليلة ممكن؟ لا، ليس كذلك ما يصير، قال: "فائدة جليلة مخالفة الأمر أعظم من عمل المنهي عنه، قال: هذه مسألة عظيمة لها شأن وهي أن ترك الأوامر أعظم عند الله من ارتكاب المناهي، وذلك من وجوه عديدة، ذكر جملة من الوجوه والذي يعنينا بهذا المقام أن قال:

الوجه السادس: أن فعل المأمورات حياة القلب وغذاؤه وزينته وسروره وقرة عينه ولذته ونعيمه، وترك المنهيات بدون ذلك لا يحصل له شيئا من ذلك، فإنه لو ترك جميع المنهيات ولم يأت بالإيمان والأعمال المأمور بها لم ينفعه ذلك الترك شيئًا وكان خالدًا مخلدًا في النار، قال: وهذا يتبين في الوجه السابع أن من فعل المأمورات والمنهيات فهو إما ناجٍ مطلقًا إن غلبت حسناته سيئاته -يعني موحد-

وإما ناج بعد أن يؤخذ منه الحق و يعاقب على سيئاته فمآله إلى النجاة و ذلك بفعل المأمور.

باب فضل التوحيد وما يكفره من الذنوب، قال ومن ترك المأمورات والمنهيات فهو هالك غير ناجٍ ولا ينجو إلا بفعل المأمور وهو التوحيد، فإن قيل فهو إنما هلك بارتكاب المحظور وهو الشرك، قال: قيل يكفي في الهلاك ترك نفس التوحيد المأمور به - أما أمروا أن يعبدوا الله مخلصين له الدين؟ فآمنوا في باب الربوبية وكفروا وأشركوا مع الله في باب الإلوهية أليس كذلك؟- قال يكفي في الهلاك ترك نفس التوحيد المأمور به وإن لم يأت بضد وجودي من الشرك، بل متى خلا قلبه من التوحيد رأسا فلم يوحد الله فهو هالك وإن لم يعبد معه غيره -قال: أنا لا أعبد غير الله ولا أعبد الله، أعوذ بالله- قال: بل متى خلا قلبه من التوحيد رأسا فلم يوحد الله فهو هالك وإن لم يعبد معه غيره، فإذا انضاف إليه عبادة غيره

عُذب على ترك التوحيد المأمور به و فعل الشرك المنهي عنه" ولهذا كان من أشد الناس عذابا، وضح؟

الوجه الثالث:

منه تعلم -أيها المحب- خطأ من فسر كلمة التوحيد بأن معنى لا إله إلا الله هي لا خالق ولا رازق ولا مدبر إلا الله، من بعض أهل الضلال والانحراف بل تعلم منه جهل من قال، أحد دعاة الصحوة كما يُقال أو مفسدي الصحوة هو ألصق بهذا أن قال: إن أحسن من فسر كلمة التوحيد هو سيد قطب، قالها هذا الدعي، هذا الدعي ما عرف معنى التوحيد، بل هو شريك لسيد قطب في ضلاله وانحرافه، شريكه ومروج له -نعوذ بالله- من الحول بعد الكور.

فالإمام محمد هنا في هذه القاعدة أيضًا يرد بهذه القاعدة الأولى على الذين يزعمون أن الشرك لا يكون إلا في توحيد الربوبية أو على الذين يقولون بأن معنى لا إله إلا الله لا خالق ولا رازق إلا الله فهو يرد بهذا عليهم -رحمه الله-.

إذًا تقريره للقاعدة فيه ردٌ على كل من فسر كلمة التوحيد بغير التفسير الصحيح لها وهو لا معبود بحق إلا الله، أو لا يستحق أحد العبادة إلا الله، فكل من قال قولًا خلاف هذا فهو مردودٌ عليه بنص القاعدة وضح -بارك الله فيكم-

.

نقف عند هذا وصلي الله وسلم وبارك على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم.

الأسئلة:

السؤال:

قال السائل: بدأ المصنف -رحمه الله- بالدعاء للمتعلم ولم يدع لنفسه أليس هذا خلافًا لما كان عليه النبي -عليه الصلاة والسلام- من الدعاء لنفسه ثم لمن أراد الدعاء له؟

الجواب:

لا ليس خلافًا، أقول ليس خلافًا لابد أن تعلم السنة حتى تحكيها، فهذا ليس خلافًا إنما هو مسلكُ صحيحٌ لا حرج فيه.

السؤال:

ما الفرق بين الحمد والشكر أم هما شيء واحد ؟

الجواب:

ليسا بشيءٍ واحد بل هما مفترقان فالحمد من حيث المتعلَق بينهما اختلاف، الحمد يكون باللسان، والشكر أعم من حيث التعلُق والمتعلَق فإنه باللسان وبالقلب وبالجوارح راجع كلام الإمام ابن القيم في "عدة الصابرين" وغيره .

السؤال:

قال شيخنا -بارك الله فيك- أنا شابٌ حديث الاستقامة ولله الحمد ولكني مبتلى بالأخذ من لحيتي والتقصير منها فما هي نصيحتكم لي -بارك الله فيكم؟

الجواب:

من نعمة الله عليك أن هداك للاستقامة، فاحمد الله -جل وعلا- صباح مساء، في كل حينٍ وآن احمده على الاستقامة على السنة ومن نعمة الله عليك أن عرفك الغلط الذي وقعت فيه، من نعمة الله عليك أن عرفك هذا الخطأ الذي ذكرت، فمن نعمة الله أيضًا عليك أن تستغفره مما فعلت وأن تمسك عن هذا الفعل فتمام الاستقامة أن تكون ملازمًا للسنة في قولك وفعلك وهديك، واضح؟

نسأل الله -عز وجل- أن يطهر قلبك وقلبنا وقلوبنا بالاستقامة على السنة.

السؤال:

قال: هل من كان يعرف حكمًا فيه خير للناس لكنه لا يستحضر الأدلة من الكتاب والسنة يمكنه أن يدلهم عليه؟

الجواب:

على كل حال، بيان الحق للخلق يجب أن يكون بعلم وعدل، قال الله- عز وجل-: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ

كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ إذا تكلمت تكلم بعلم، وإلا فاصمت بحلم، إذا رأيت خطأ ولكنه قد غاب عنك الدليل فلا حرج أن تبينه بالتي هي أحسن، واستحضارك للدليل هو الواجب،

العلم قال الله قال رسوله *** قال الصحابة هم أولو العرفان

مع الأسف كثير من الناس، ومن الطلبة غاية علمهم ومنتهى تحصيلهم قال فلان بس، لا شك أن مقالات العلماء لها وزنها وثقلها في الشرع المطهر، إذ إنهم هم الأدلاء الحقيقيون للناس للهدى، ولكن يجب أن تعلم مأخذ ذلك العالم إذا ما قال قولًا، ما تقف قال فلان فقط، وضح؟ فتعلموا وتربوا على العلم الصحيح، الأزمة أزمة علم صحيح، وما أكثر الشبه وما أكثر المشبهين على الناس، وما أكثر الذين يريدون المتشابه ويتركون المحكم تدليسًا وتلبيسًا على الناس -والعياذ بالله-.

السؤال:

قال بعض المبتدعة كجماعة التبليغ يقولون: أنتم السلفيون تنكرون علينا الأصول الستة، وعندكم الأصول الثلاثة والقواعد الأربعة وغيرها؟

الجواب:

هذا الكلام يعني سقوطه يغني عن إسقاطه هذه فرقة مبتدعة ضلَّال نعوذ بالله منهم، ونسأل الله لهم الهداية إلى السنة، أما آتي بشبهتهم وأقول عندكم أصول؟ من أين لكم هذه الأصول الستة؟ ومن ابتدعها؟ هاتوا شيخكم الذي ابتدع هذه وانظروا على أي طريقة أو طرق كان، هل كان على السنة أم كان على البدعة؟ ثم هنا مغايرة كلية من كل وجه لم ينكر أحد من أئمة السنة وعلمائها على الإمام محمد -رحمه الله- أن قال وكرر وألف هذه المؤلفات وسماها هذه المسميات، أليس كذلك؟ بل يدرسونها مقرين له فيها، وكلها منتزعة من كتاب الله ومن سنة رسول الله -عليه الصلاة والسلام- ومراده منها تقريب العلم لأفهام الطلبة،

ليس إلا، وضح؟ وأما أنتم فكم المنكرون لكم؟ لا يوجد عالم واحد من علماء السنة المحضة يقركم عليها فأي الفريقين أحق بالأمن؟

السؤال:

قال: والله يا شيخ إنّنا نحب في الله، أو كذا، في هذه الفترة، في تونس حملة على هذا الإمام،- يقصد ربما الإمام محمد -رحمه الله- في جميع وسائل الإعلام، بعد ما قام بعض الأشخاص بحرق أو كذا بعض الأضرحة، أو التوجيه.

الجواب:

الإمام محمد -رحمه الله- لا يُحارَب في هذه الفترة، من قديم يُحارَب، ولازال يُحارَب، وإذا ما أرادوا صدّ الناس عن الحق، قالوا: هؤلاء وهّابية، أليس كذلك؟ والإمام محمد -رحمه الله- هذه كتبه وهذه رسائله، فمن كان عنده غير الحق الذي ذكر، يتفضّل يُبيّن ضلال الإمام محمد ودين الإمام محمد الذي جاء به الجديد كما يدّعون، هي شنشنة أعرفها من أخزم، من قديم، عادوا أئمة السنة من قديم،

هؤلاء المُعادون لحملة الحق ودعاة الحق أهل السنة وغيرهم، سلفهم في ذلك الكفار فقالوا في نبي الله، في نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام- ساحر وكاهن ومجنون وكذاب أليس كذلك؟ وقالوا وقالوا وقالوا في أئمة السنة بعده، يُنفّرون، كم نفّروا عن أئمة السنة! لكن هؤلاء كالذين يريدون أن يُغطوا ضوء الشمس بالغربال، ما يستطيعون فإنه حق، على كل حال يجب أن تبيَّن مناقبه بعلمٍ وعدل، ولا نجد يعني نعقد على مثل هذه المسائل، بمعنى تأتي في مكان فيه كما يُقال قتال واقتتال، تقيم محاضرة عن الإمام محمد بن عبد الوهاب، فالحكمة تقتضي أن تتدرج مع الناس لترغبهم في الحق، وأنّ من علماء الحق الذين يدعون إلى هذا الحق علماء كثير، من الصحابة والتابعين وتمر بهم حتى تصل بهم إلى الإمام محمد، وتذكر مناقب هذه الدعوة السنية، وأنّه ما جاء بدين جديد، إذا احتيج إلى هذا، وضح؟ نعم.

السؤال:

هذا يقول: نريد منكم – جزاكم الله خيرًا– أن تجروا لنا اختبارات على كل متن فذلك أنفع للطلاب.

الجواب:

ما الذي أدراك أنّه أنفع؟ أهكذا كان علماء السنة عندما يُدّرسون، وأشياخ السنة يجرون امتحانات على الطلاب!

ما الفائدة التي أنت جئت من أجلها؟ أنت جئت لتتعلم صحيح؟ "العلمُ صيدٌ والكتابة قيده" فالذي يجب عليك أنت، أن تُراجع وأن تُذاكر وأن تستذكر دائمًا وأبدًا، أمّا أجعل لك اختبارات، وراسب وناجح، فهذا لا أفعله ولن أفعله، اترك هذا وليس هذا بطريقة لأهل العلم، انتبه، ومن فعل فقد غاير الطريقة الصحيحة، وكما قيل: "ما هذا بعُشك فادرجي" لمن خالفَ السَنَن، انتبه –بارك الله فيك–، أمّا تقول أنفع، كيف أنفع؟ حكمت أنه أنفع لعموم الطلبة؟ أنت

بينك وبين نفسك، أجرِ لنفسك اختبارات في البيت، إذا تريد، وصحح لنفسك، بس لا تغش.

طيب نقف عند هذا.

وصلِّ الله وسلِّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

وللاستماع إلى الدروس المباشرة والمسجلة والمزيد من الصوتيات

يرجى زيارة موقع ميراث الأنبياء على الرابط

www.miraath.net

وجزاكم الله خيرا.